

باسم الله الرحمن الرحيم.

مدخل إلى التربية النفسية

تهتم التربية بالفرد ككل وبنموه كوحدة متكاملة وبشخصيته من كل جوانبها جسميا وعقليا واجتماعيا ونفسـيا، مع إرسـاء التوازن بين هذه المجالات، والتربية إذ تتضـمن عناصر كثيرة تهدف إلى بناء عقل الفرد وجسـده تهتم أيضـا بتعديل السـلوك ودوافعه في النفس، إذ ليس الغرض هو زيـادة التحصـيـل المعرفي وإهمال النفس بكونهـا العـامـل الأسـاس في تحديد الاختيـارات الفرديـة والسـلوكيـة وتوجيـه الميولات والقـدرات وبناء الذات الفاعلة وتجاوز الأزمـات، ومـا لغير ذلك جعل سـبحانه لتزكية هذه النفس وتقويم اعوجاجها منزلة الفلاح وهي غاية ما يرجوه الإنسـان في هذه البيئة الابتلائية "الحياة". (ونَفسٍ ومَا سَـوَّاها فألهمها فُجورها وتَقواها، قد أفلح من زكَّاهَا وقد خَابَ مَن دسّـاهَا). ونازِعَا الفجور والتقوى ليسـا عارِضـين بل هما موغلان في النفس البشـرية، ويعني ذلك أن تطهير هذه النفس من فجورها وتحليتهـا بـالتقوى بما هي ملاك الأمر ليس فقط في الجانب التعبدي بل الفاعلي والمجتمعي والحضـاري، وانظر إلى قوله تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصـالحات كالمفسـدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)، قرَن سبحانه بين الإيمان والإصلاح والتقوى وبين الإفساد في الأرض والفجور، فالعملية الإصلاحية الحضارية لا تنبني بهذا المعنى إلا على هذه التقوى.

ولا مُشـاحة في المصـطلحات، فالتقوى بتعبير العصر ـ هي ذلك التوزان النفسي ـ الذي يدفع بـالفرد إلى تحقيق ذاته، وبناء مجتمعه، لكن هذا التعبير مُجردٌ من قيمته الإحيائية، وموارده السـنائية، فتحقيق الذات بالمصـطلح القرآني لا يقتصر على الفاعلية المادية في المجتمع، يعني رفاهية المأكل والملبس، والتطاول في البنيان، بل يتجاوز هذا المعنى إلى بُعد خالدٍ هو تحقيق الاسـتخلاف في الأرض، (إني جَاعِلٌ في الأرْضِ خَليفَة)، والاسـتخلاف هنا بمعناه الابتلائي، (وهو الـذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضـكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم)، فالله يريـد من عبـاده أمراً واحـدا ومـا خلقهم سـبحـانـه لغيره، وهو تحقيق العبوديـة له، هذه العبوديـة التي هو أهـل لهـا بما خلق وسـوى ثم قدر فهدى وأي عمل لم يندرج تحت هذا المبنى فهو مردود، ولا قيمة ولا وزن لبناء حضـاري مهما بلغ صرحه إن تجرد من غاية الخلق هـذه، واطمأن بالكسـب لدار لا بقاء لها، وارتقاءَ المجتمع المدني المعاصر لا يعني أنه حقق هذا الاستخلاف بل نقيضه، وإن كان التطور المادي دليله فاسمع لقوله تعالى (من كان يريد

العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد)، فهو تعجيل لدار كُتب لها أن تفنى بحلول الأجل، ولا يبقى منه شيء يوم يُعرضون لا تخفى منهم خافية، فقيل (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)، والغرض هنا هو توجيه القصد لا نبذ الوسائل التي هي مكاسب هذه الدنيا ومتاعها، يعني أننا في بنائنا لهذا المجتمع الذي نسعى بتوفيقه سبحانه لارشاده لغايته الاستخلافية لا يجب أن نركن لهذه الحظوظ الفانية ونطمئن بها ونجعلها شاغلنا وقصدنا، وهَبْ أنك بنيت هذا المجتمع المدني وأعليت صرحه وشيدت بنيانه وصرت للعالمين أميراً وقائداً، هل حققت غاية هذا الاستخلاف، لا والله، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً.. إنما القصد هنا هو بناء ذلك المجتمع الايماني الذي جعله الله خير أمة أخرجت للناس، مجتمع يبني لدار البقاء ويسعى لها، (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً)، واذا ضرب في الأرض مُعمِّراً فلا لمتاعٍ يرجوه ويستغني به، بل لأنه أُمِرَ أن يتخذ الأسباب ويبتغي الرشاد، فإن حاز الدنيا وما فيها فلا يفرح بشيء منها، وذلك معنى قوله تعالى (إن الله لا يحب الفرحين) أي الذين بلغوا سنام بهجتهم وسرورهم بجمع فتات هذه الدنيا، بل يبقى حتى ويده ملأى بذلك المتاع متعلقاً قلبَه بالله سبحانه وما أعد له في جنته..

صحيح أننا نعي هذه المعاني ونسوقها في كل مجلس، لكنها لا تجد سبيلاً لواقعنا، حتى ذلك الواقع الإصلاحي، فغالب الدعوات الإصلاحية اليوم تدعو الناس إلى الدنيا بدل دعوتهم إلى الله، ولدى كَثُر الحديث عن المكاسب الحضارية وبناء الدول وتشييد المؤسسات رغم أن هذا الخطاب لم يعهده الرعيل الأول ولا شب عليه، وهل سمعت الحبيب صلى الله عليه وسلم يوماً يدعو إلى هذه الحظوظ، نعم هو يعلم أنها ستأتي يوماً، وستفتح خزائن الدنيا على المسلمين وسيتطاول حكمهم، لكنه لم يدع إلى ذلك وابتغائه قصداً، بل حَذَّر منه عليه الصلاة والسلام، (ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسطَ الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ،فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)

وما بعثه الله مُشيّداً للبنيان بل دَاعياً إلى -الله- باذنه وسراجاً منيراً، أما البناء والتمكين والتشييد فذلك من أمر الله، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيُمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ولَيُبدِلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً)، والشقي يفهم من هذه الآية أن يسعى لذلك الاستخلاف والتمكين والأمن ولا يفهم منها أن يكون مؤمناً عاملاً للصالحات.. وقد قيل لا تُضيع ما استُكفيت، ولا تشتغل بما كُفيتَ. فالله كفاك أمر الدنيا وأمر استخلافك والتمكين لدينه، فلا شأن لك به، وأمَرك أن تكون مؤمنا عاملاً للصالحات، وهذه الصالحات هي ذاتها

أسـباب ذلك الاسـتخلاف، لكنك اذ تسـارع في اتيانها لا تنظر إلى هذه الحظوظ بل ترى الله مُستحقا لهذا العمل منك، وسائلك عنه يوم تلقاه..

بيت القصيد هنا أن نجعل دعوتنا هذه سراجاً منيراً، لا بتلك الأضواء التي تملأ شوارع المدَنية، فاذا رأى الناس بها عجزوا أن يُبصروا.. بل منيراً بضياء الإيمان، ذلك النور الذي يصدع في الأفق فيهتز له عرش الرحمن اجلالاً، وتخشـع له آذان الملائكة، وتطمئن إليه أفئدة المؤمنين. والله يكفيك أمر التمكين سـبحانه، بل من قلة الأدب مع الله أن يسـوء ظنك به فلا تُسـلّمَ له بما هو أهل له، الله هو المُدبّر، وهو القاهر، وهو القيوم، وهو الجبار، فهل يُعجزه أن ينصرـك؟ ويسـتعظم المسـكين مكاسـب المدنية ويُرهبه الفارق الذي بينها وبينه، فيَسـارع إلى البناء والتشـييد والإعمار، زاعما أنه يريد أن يلحق بالركب، ركب الحضـارة، ناسيا أن الله أمَرَه بغير ذلك، بغير ذلك قطعا، وما أجَلَّ وصـفه سـبحانه.. (أعمالهم كسراب بقيعة يحسـبه الظمآن ماء) ، فالمجتمع العربي اليوم لا يسـتشعر إلا هذا الظمأ لتلك المدنية التي يُساق إليها عبداً لا سيداً، (حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب).

ظَمَأنَا لا يجب أن يكون إلا لرضـوانه سبحانه، وابتغاء مرضاته، واستشعار الفقر والفاقة إليه، فلا غير ذلك يُنجينا من شدة حسابه..

وأنتم اذ تسـمعون هذه الكلمات ربما تعونها فتسـلمون بها وربما قلتم هذا ما ندعو إليه ونؤمن بـه، لكن أيّنا يعمل بها حقا، وأينا يجعل هذا منهاج حياة بدل أن يكون كلمات تُلقى وتُنسى، أينا يجعلها منهاج اصلاح ودعوة وبناء، منهاجا أصيلاً لا مجرد شكليات، ولا نفْعَ والله في تخريج أطفـالِ يحفظون القرآن وأفئـدتهم لا تعيـه ولا تتشربـب بمعـانيه ولا تجعله قائداً ونصـيراً، بل سـنام مراد الواحد فيهم أن يصـير طبيبا ومهندسـا وقاضـياً ثم لا يكترث بعدها بغاية الخلق تلك، ولا يبتغي في ما آتاه الله نصرـة المسـتضـعفين ولا اعلاء هذا الدين، وقد سـبَقتنا إلى ذلك المدارس الخاصـة وأبلت فيه بلاءاً حسـنا فلا داعي إلى إضـافة مدرسة أخرى إلى تلك الصـفوف.. وتُعنى بهذا نفسَـك التي بين جنبيك وأسرتك وحيك، وأحبابك، إن لم تكن لتلـك الغـايـة داعيـاً فلا تسـأل اللـه جزاءاً ولا تبتغ عنـده منزلة، وغالب الأسر اليوم يؤزون أبناءهم على حب الدنيا وابتغاء المناصب فيها والتباهي بمتاعها، ولا ينفع بعد ذلك أن تكون مُصـلياً وصائماً، فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب مؤمن، ثم تجده في يومه وليله منهمكاً بذلك المتاع، بجمعه وعدّه وتحصـينه وابقائه، قلق في قلق، حتى اذا سـجد بين يدي الله لا يدري أي دعاء لهج به لسـانه لفرط انشـغاله بحظوظ الدنيا، فعليها يسـتيقظ وعليها يأوي إلى فراشـه. أعيد، وإن كان مُصـلياً وإن كان صـائماً، فما فُرضت الصلاة إلا لتكون ذكرى،

فما نصـيب اللاهي منها اذا نَقرها ثم انفض إلى دنياه، وما نصيب المرء من القرآن اذا حفظه لسـانه ونسيه قلبه وبيانه، وما نصيب المرء من حفظ أسماء الله العليّة إن لم يكن مستحضراً لمعانيها، فإذا سره أمر شـكر الكريم، واذا حزَبه أمر فزع للرحيم، واذا أوذي استغاث بالنصير، واذا أذنب سـأل الغفور، واذا هَمّ بالمعصـية تذكر السـميع العليم، ما نصيبه من هذه المعاني إن كان لا يذكر الله إلا قليلاً..

قضـيتنا اليوم ليسـت إعادة سَنّ العبادات أو تعليم القيم والأخلاق أو تلقين العلوم والأفكار، قضــيتنا احياء الايمان في تلك القلوب، ايمانا صــادقاً يفيض أنواراً على الجوارح والأركان، ايماناً يُداعب تلك الأفئدة فيملأها يقينا بالله، فتنهض بلا تكلّف لأداء أمانتها، وتأكيد اســـتخلافها، أولئك الذي يدعون يبتغون إلى ربهم الوســـيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذوراً.